الفصل السابع

- أثر الاحتفال بالذكريات
- الهجرة كفاح لتحرير الانسان
- الهجرة أول صرح فى بناء الوحدة
- شهر شعبان
- غزوة بدر « يوم المبادىء »
- يوم بدر
- الأعياد فرصة لتجديد الحياة
- العيد فى حياتنا الاجتماعية
- الروابط الانسانية فى العيد
- عيد الفطر
- العيد الأكبر وأيام التشريق

obeikandl.com

obeikandl.com

أثر الاحتفال بالذكريات

تحتفل الشعوب والأمم عادة بالذكريات التى تتصل بتاريخها وبتكوينها كشعب وأمة . وهى ذكريات لأحداث قام بها أفراد . وهذه الأحداث خلفت مبادىء وقامت على تحقيقها . والذكريات التى تحتفل بها الشعوب والأمم هى فى واقع الأمر ذكريات لتلك المبادىء التى حمل رسالتها أفراد خاصة من بينهم .

والاحتفال بذكريات المبادىء التى تتصل بحياة الأمة أو حياة الشعب سنة طبيعية للشعب الذى يعرف تاريخه ، ثم يحرص على بقائه كشعب له شخصية خاصة وغاية معينة ، فى حياته وفى كفاحه من أجل البقاء .

فى ذكريات ميلاد الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام : نحتفل بذكرى ميلاده . وفى واقع الأمر نحتفل بالمبادىء التى قامت عليها الجماعة الإسلامية ونحتفل بتاريخ قيامها ، وفى الوقت نفسه نوحى بهذا الاحتفال إلى ايقاظ الحرص فى نفوس المسلمين على استمرار بقائهم كشعب وأمة .

واحتفالنا بالمبادىء ليس بتمرير عناوينها على أسماعنا ، وإنما بتمثلها فى نفوسنا ، ثم بتحويل ما نتمثله منها إلى أعمال فى حياتنا العامة والخاصة .

ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إذا قرأنا تاريخ حياته مع رسالة الإسلام ، فى هذه الذكرى النبوية الكريمة ، أو إذا استمعنا لقصة هذا التاريخ فى هذه المناسبة ، فإنه ينبغى ، عندما نقرأ أو نسمع ، أن نعيش معه فى حياة الكفاح والمجاهدة من أجل رسالة الإنسانية الفاضلة . ينبغى أن نصحبه فى نشأته ، ونصحبه عندما قام يدعو لرسالته ، ونصحبه فى كفاحه من أجل تثبيت هذه الرسالة ، ونصحبه فى جو مبادئها وجو نموها .

ونحن إذ نفعل ذلك نفعله من أجل حرصنا على أن نبقى مسلمين . أى من أجل أن تبقى تلك الأمة الخاصة التى تكونت وعرفت فى تاريخ البشرية بأنها الأمة المسلمة .

نحن نحتفل بذكرى ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام من أجل أنفسنا ، ومن أجل مستقبلنا . نحن أمة تميزت بأنها الأمة المسلمة . فلكى تبقى هذه الأمة — ولا بد أن تبقى — نستعيد على أسماعنا تاريخ الإسلام فى قيامه وفى مبادئه بذكرى ميلاد صاحبه ، ونفقه ذلك جيداً ، وندفع أنفسنا بعد ذلك دفعاً قوياً جديداً . لنستمر مسلمين أصحاب شخصية إسلامية ، وأصحاب رسالة إنسانية فى الحياة .

نتذكر فى نشأة صاحب هذا الميلاد الكريم : ما كان عليه من خلق قويم يتمثل فى الأمانة والوفاء بالوعد وإحقاق الحق . ونتذكر قيامه بالدعوة إلى رسالته وما اعترض طريقه من عقبات ومؤامرات ، صعب أمرها وطال زمنها . ونتذكر فى كفاحه من أجل هذه الرسالة ما أخذ به نفسه من الصبر والاحتمال وقوة الإيمان . ونتذكر فى رسالته ما جاءت به من توازن وتعادل بين الناس جميعاً ، ما جاءت به من توازن بين نفس الإنسان وجسمه ، وبين المرء وأخيه وابنه وأبيه وأمه ، وبين الجار وجاره وبين الراعى ورعيته ، وبين المسلم ومن يشاركه فى إسلامه واعتقاده به .

فإذا تذكرنا فى شخصيته عليه الصلاة والسلام ذلك كله كان أمامنا نموذج لإنسان فى خلقه وإيمانه وكفاحه ، وكان نموذج كذلك لرسالة جاءت للمساواة أى للتوازن والتعادل بين الناس فى حياتهم الخاصة وفى مجتمعهم عامة

وعلى هذا النحو من الاحتفال بمثل هذه الذكرى نكون قد أفدنا منها لأنفسنا . أما أبناؤنا فسبيلهم إلى النفع بها أن يحسوا بمباهجها ومظاهرها الخارجية لينفذوا

من هذه المباهج والمظاهر إلى حقيقة الذكرى وغايات ماوقع فيها مما يذكر ويتذكر. وبتكرار الاحتفال بها تنطبع فى نفوسهم صورة واضحة لها ، يصدرون عنها فيما بعد فى سعيهم فى الحياه ، ويدركون بها معالم وجودهم كجماعة وأمة لها مستقبلها .

الاحتفال بالذكريات ضرب من ضروب التفكير فى أحداث التاريخ ، لايثمر إلا إذا ترتبت عليه نتائجه وآثاره من وعيها والعمل بمقتضى ما وعى منها . وتلك سنة الجادين فى الحياة وأمارة أيضاً على حيويتهم فيها . وقد امتدح الله سبحانه فى قرآنه الكريم أولئكم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض فأثمر تفكيرهم نتيجته المستقيمة وهى الاعتراف بخلقه وربوبيته . فيقول : « الذِين يَذكُرُون الله قِياماً وَقعُوداً وَعلى جُنُوبهم وَيتفكرُون فِى خَلْق السمَوَاتِ وَالأرْض ، ربنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا(١) » .. امتدحهم لأنه لم تمر عليهم طبائع الوجود دون أن يدركوا قيمتهاوآثارها . امتدحهم لأنهم انتفعوا بالنظر فيما يحيط بهم ، واستخلصوا منه : أن اهتدوا للإيمان .

وشأن الذكريات فى تاريخ الأمة شأن الطبائع فى الوجود ، تمر على الإنسان أو يمر الإنسان عليها ، تكون ذا أثر إيجابى فى حياة فريق من الناس ، وتبقى بلا أثر فى حياة فريق آخر . وينتفع بها فحسب أولئكم الذين يعيشون فى يقظة ويحرصون على أن يبقى وجودهم مصوناً .

حياة الإنسان تاريخ وسجل لأحداث قومه وأمته . الإنسان الحى هو الذى الذى يجعل من هذه الأحداث ذكريات يربط بها ماضيه بمستقبله . وميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام يجب أن نجعل منه ذكرى ، وأن ننتفع به كل عام فى تجديد بناء أنفسنا وفى التمسك بمستقبل الجماعة الإسلامية .

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

Obeikandi.com

الهجرة كفاح لتحرير الإنسان

يقول الله جل شأنه : « إلا تَنصرُوه فَقدْ نَصرَه الله ، إذ أخرَجه الذين كفرُوا ثانى إثنين إذْ هُما فى الغَار ، إذ يقول لصَاحِبه لاتحزَن إنّ اللهَ معَنَا ، فَأنزَلَ اللهُ سَكينَته عليه وأيدهُ بجنُود لم تَروهَا ، وجَعَل كلمَةَ الذين كفرُوا السفْلى ، وكلمَةُ الله هِى العُليَا ، والله عَزِيز حَكِيم »(١) :

يعلن الله سبحانه بهذه الآية الكريمة ، الحد الفاصل بين عهدين متميزين فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام : بين عهد ملىء بالخوف والرعب والإيذاء النفسى والبدنى بالنسبة لصاحب الرسالة محمد ﷺ وصحابته الأُول الأقلاء رضوان الله عليهم ، وهو عهد الدعوة الإسلامية بمكة موطنه وموطن قبيلته قريش قبل الهجرة إلى المدينة .. وبين عهد تال بعد ذلك طبع بطابع العزة والسيادة للمسلمين ولكلمة الحق ، وهو عهد ما بعد هجرته عليه السلام إلى يثرب مدينة أخوال جده عبد المطلب من بنى النجار ، ومقر قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب .

هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة كانت خاتمة لمرحلة كفاح من أجل الحق ، وهو كلمة الله وحده . كفاح لم يعتمد إلا على الإيمان بهذا الحق وحده وعلى أن النصر له حتما فى النهاية : فلم يكن المسلمون طيلة السنوات الثلاث عشرة وهم بمكة قبل الهجرة على حال من القوة العددية أو المادية ، ولم يكونوا فى مأمن من الخصومة العنيفة غير الشريفة من أعدائهم ، بل كان عددهم قلة ، وحالهم ضعفاً ، ووضعهم فى الحياة العامة وضع المحاصر عن قصد وبسوء نية ، وضع المتآمر عليه ، وضع المعذب المستخَف به .

ولكن إيمانهم وحده هو الذى جعلهم يحتملون هذا اللون القاتم المهان من الحياة هذه السنوات العديدة فى كفاحهم من أجل الحق .

(١) التوبة : ٤٠ .

obeikandi.com

وهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة كما كانت خاتمة لهذه المرحلة المريرة فى الكفاح من أجل الحق — كانت بداية لمرحلة ثانية غلبت عليها قوة العدد والعدة عن ذى قبل بجانب قوة الإيمان المستمرة ، التى لم تفارق الكفاح من أجل هذا الحق حتى انتصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . وبفضل هذا الكفاح والإيمان القوى عد المؤمنون المهاجرون أصحاب درجة عظمى عند الله : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون[1] » .. وبهذا الكفاح المرير فى سبيل الدعوة الإسلامية كان المهاجرون من مكة والذين آووهم ونصروهم بالمدينة فى مقدمة المؤمنين وعناوين واضحة للإيمان الحق : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم[2] » .

والهجرة إذن صورة مميزة من صور الكفاح فى سبيل الحق ، ومظهر للإيمان القوى به . لم تكن إلا صدى لبلاغ الأذى مبلغه من المهاجرين وصدى آخر لقوة احتمالهم لهذا الأذى وقوة صبرهم على الضيم والمكاره . وهذا الصبر فى قوته وذاك الاحتمال فى قوته الأخرى لا يكون إلا من مؤمن تأصل الإيمان فى نفسه وسيطر على اتجاهه فى الحياة .

ولكن ما هو هذا الحق الذى آزره هذا الإيمان القوى ، وكانت الهجرة به من مكان صورة من صور قوة الإيمان به ؟ . إنه رسالة تحرير الإنسان فى اعتقاده ، وفى تفكيره ، وفى سعيه فى الحياة . ولعل كلمة جعفر بن أبى طالب للنجاشى عندما سأله بعد أن التجأ إليه — قبل هجرة الرسول عليه السلام إلى

---

(١) التوبة : ٢٠ (٢) الأنفال : ٧٤

يثرب — وطالب مبعوثا قريش [عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة] بتسليمه إياها ومن معه من المهاجرين المسلمين إلى الحبشة — لعل كلمته هـذه على إجمالها : توضح هـذا الحق فى مقابل ما كان عليه العرب فى الجاهلية من باطل الاعتقاد والتصور ، والسلوك فى الحياة .

يقول جعفر : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وأمانته ، وعفافه ، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا » .

هذا فى إجماله يوضح : أن الحق فى الاعتقاد أن يعبد الإنسان الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وأن الحق فى التفكير أن يفكر الإنسان فى غيره كما يفكر فى نفسه ، ويبتعد فى ذلك عن أن يكون أنانياً فيما يفكر ، وغير منحرف فى منهج تفكيره ، وأن الحق فى السعى فى الحياة أن يكون سعى الإنسان فيها لنفسه وأهله وعشيرته ومجاوريه ، ومواطنيه ، ثم مشاركيه فى الانسانية .

هذا الحق هو بعينه تحرير الإنسان من الوثن فى الاعتقاد ، وتحريره من الأنانية فى التفكير ، والأنانية فى السعى .

إن الإنسان الوثنى فى اعتقاده إنسان جعل للمخلوقات والكائنات سلطاناً على نفسه فى توجيهه وتصرفه . إنه غل عنقه بيمينه بحيث صار تابعاً لما دونه فى

الوجود ، يستوحى منه التوصية ويستلهم منه السلوك والمواقف ، حين لايستطيع هذا الذى يُستلهم ويستوحى منه فهماً ولاضراً لنفسه .

إن الإنسان المشرك الذى يعبد مع الله غيره إنسان ردد نفسه فى التوجيه يمنة ويسرة ، وأسلم زمام أمره لغير ذى شأن فى الوجود . فحتماً يلتوى عليه القصد كما ينحرف به الطريق إلى ما يقصد .

والإنسان الأمانى فى تفكيره ، والأمانى فى سعيه ، إنسان أخضع نفسه إلى هواه . ينظر للحياة على أنها له وحده ، ويسعى فيها على أنه أولى بها فيصطدم فى تفكيره كما يصطدم فى سلوكه بغيره الذى يقاسمه هذه الحياة فيشقى بتفكيره عندئذ كما يشقى بسلوكه . وسبب شقوته فى الأمرين : أنه لم يستطع أن يحرر تفكيره من أنانيته ويحرر سلوكه من ذاته .

الهجرة عنوان على كفاح وعلى إيمان برسالة . وحياة الإنسان ، ذلك الكائن المتميز عن الحيوان ، هى إيمان وكفاح . حياة الأفراد كحياة الأمم يجب أن تكون مليئة بالإيمان برسالة ويجب أن يكون السعى فيها كفاحاً لتحصيلها وتحقيقها . إن خلت حياة الأفراد والأمم من الإيمان والكفاح خلت من الحياة الإنسانية نفسها وأصبحت شبيهة بحياة السائمة .

والإيمان بالحق أمجد أنواع الإيمان ، والكفاح فى سبيله عاقبته النصر حتماً ولو بعد حين .

والحق الواضح هو الذى يستهدف خير الناس جميعاً . وفى مقدمة هذا الخير : صيانتهم من العبث والفساد فى العقيدة والتصور والسلوك .

الهجرة أول صرح فى بناء الوحدة

يقول الله تعالى : « وإنْ يريدُوا أنْ يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم . يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . » (١).

بهذه الآيات الكريمة يحدث الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن بعض نتائج الهجرة التى أذن له فيها ، بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها فى مكة ، داعياً لدين الله ، مثابراً على دعوته وصابراً فى سبيلها ، ومتحملا صوراً عديدة من آلام مواجهته برفض الدعوة والعناد فى رفضها ، ومتحملا ألواناً من مرارة شعور النفس بالإيذاء مرة، والحرج مرة أخرى .

إن هذه الهجرة أثمرت ـ فيما أثمرت ـ وحدة القلوب بين المهاجرين ، الذين انتقلوا بإيمانهم وبرسالتهم من مكة إلى المدينة ، وبين الأنصار ، وهم المؤمنون من سكان المدينة الذين آووا ونصروا أولئك المكيين المهاجرين عندما وصلوا إليهم . أثمرت تماسكهم فى ترابطهم ، أثمرت التقاءهم فى طريق واحد وعزمهم على الوصول إلى الهدف الواحد . أثمرت رفع ما كان بينهم من روح العصبية القبلية وإزالة ما كان بينهم من خصومة أوجدها الصراع الذى كان يسود حياة القبائل إلى قيام الدعوة الإسلامية

نسى الفريقان ما كان يتفاخر به الآباء ، وما كان يثير الفرقة بين ذويهم . واندفعوا فى الاتجاه الذى رسمته الدعوة الجديدة ، وهى الدعوة إلى الإسلام . وأصبحوا بعد إيمانهم مؤمنين بالله فقط ، لا مكيين ولا مدنيين . وضحوا فى سبيل

(١) الانفال : ٦٢ ـ ٦٤

obeikandi.com

لله وحده ، لا فى سبيل القبيلة . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الحق والإيمان به ، لا فى سبيل العصبية والتشيع لغير الحق والإيمان به . ولذلك كانوا هم المؤمنين حقاً : « وَالذين آمنوا وَهاجروا وَجاهدوا فى سبيل الله ، وَالذين آووا وَنصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرةٌ وَرزق كريم (١) » .

* * *

وكان للهجرة هذا الأثر من ترابط القلوب ، ووحدة الصفوف ، وتماسك الأيدى ، لأنها لم تكن انتقالا ولا تغييراً لمكان ، بل كانت عنواناً على عزم وتصميم هو عزم المؤمن بالحق والتفانى فى سبيله . كانت عنواناً على الجلد والكفاح والمثابرة فيه من أجل المثل والقيم . وإخوانهم الآخرون بالمدينة الذين آووهم ونصروهم كانوا أيضاً أصحاب عزم وتصميم ، وأصحاب جلد ومثابرة على الكفاح ، من أجل الإيمان والحق والمثل والقيم . ولذا عاهدوهم على نصرتهم قبل أن يأتوا إليهم ، بل دعوهم إلى القدوم إليهم حتى تكون لهم جميعاً عزة بعد ذل ، وقوة بعد ضعف ، وحتى تندفع هذه القوة فى طريقها ويكون الدين كله لله ، وحتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ولمكان الهجرة فى توحيد الكلمة ، — وحدة القلوب والاتجاه ، وفى تحويل وضع المؤمنين من الضعف إلى القوة ومن الذلة إلى العزة والسيادة — رغب القرآن الكريم فى الهجرة إذ ذاك ، ونادى المؤمنين فى أى مكان أن يلحقوا بإخوانهم المهاجرين الأولين ، ويكون لهم ما لأولئكم من الدرجة والفضل : « والذين آمنُوا من بعدُ ، وَهاجرُوا وجاهدُوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إنَّ الله بكل شىء عليم (٢) » .

إن الهجرة هى نقطة التحول فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام وفى تاريخ المؤمنين

---

(١) الأنفال : ٧٤ (٢) الأنفال : ٧٥

obeikandi.com

به ، وسيادتهم على أنفسهم ومواجهتهم بغيرهم وهم أعزاء كرماء . هى نقطة البداية نحو القوة والعزة . هى أول صرح قوى فى بناء الوحدة الإسلامية ، التى قامت على صفاء النفوس والتقاء القلوب ، وتضافر العزم والتصميم على الوصول إلى النصر . وقد كان لهم النصر بعد ذلك . وكان لهم التأييد من الله لأنهم أخلصوا فيما آمنوا به ، وضحوا بشهواتهم وأموالهم ، وبمالهم من متع الحياة فى سبيل ما آمنوا به : « أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور [1] » .

مغزى الهجرة فى الاسلام :

إن هذا هو مكان الهجرة فى الإسلام . هى ليست هرباً ولا فراراً من الكفاح . ليست أمارة على ضعف بالإيمان بالحق ولا تخلصاً من مواجهة الأزمات والشدائد . إنها كانت تعبئة للنفوس بالإيمان وللقوى البشرية بالتكتل . وكانت إعداداً للقوة . إنها كانت تصميماً على النصر من أجل الحق ، فأثمرت القوة ، وكانت القوة فى الوحدة . . ثم أثمرت الوحدة والنصر . وكان النصر هو قطع دابر الكافرين ، والعزة للمؤمنين . ومن أجل هذا إذا كانت الهجرة بمعناها الذى عرف على عهد الرسول ﷺ قد انتهت بفتح مكة ، فالهجرة بمعنى التعبئة فى سبيل الحق ، والهجرة بمعنى الاعداد للقوة والنصر ، والهجرة بمعنى التكتل والاتحاد فى مواجهة العدو الذى يبغى التقويض ونشر الفرقة . . الهجرة بهذا المعنى باقية

---

(١) الحج : ٣٩ — ٤١

ومستمرة فى البقاء . ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه[1] » .. إذ الذين يتبعون المهاجرين والأنصار بإحسان هم أولئكم الذين يقتفون أثرهم فيما أعدوا أنفسهم به من سلاح الوحدة وجمع الكلمة ، وفيما أعزوا به دين الله ، وفيما أحرزوه من نصر أيدهم فيه الله .

الهجرة ذكرى الوحدة ، وذكرى القوة ، وذكرى الإيمان ، وذكرى النصر .

---

(١) التوبة : ١٠٠

شهر شعبان

إذا تحدثنا عن الأشهر والأيام والامكنة ، وعن قيمها فى نظر الإسلام ، فحديثنا عنها فى واقع الأمر هو حديث عما ارتبط بها من ذكريات وأحداث ، كانت لها فى تصوير بعض مبادىء الإسلام نفسه . ومن ذلك حديثنا اليوم عن شعبان :

فتروى عائشة رضى الله عنها فى حديث لها تقول فيه : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يصوم من شهر أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله . وفى رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلا .

فحرص النبى عليه الصلاة والسلام على صوم شعبان أو صوم أكثره — يعطى ما للصوم عامة من أهمية فى حياة الانسان وحياة المجتمع ، ثم ما له من أهمية على على وجه الخصوص فى شهر شعبان . وأهميته على وجه العموم لأنه وسيلة يصفى بها الإنسان نفسه ، وقلبه ، ويهذب بها لسانه وسلوكه ، ثم هو وسيلة من جانب آخر يلقى بها الإنسان أزمات الحياة الخاصة والعامة ، وما أكثرها وما أشدها فى بعض الأحايين .

أما أهمية الصوم فى هذا الشهر بخصوصه فهى أنه تمهيد لأداء واجب الصوم المفروض وهو صوم رمضان . فإذا صام الإنسان بعض أيام هذا الشهر — قلت أو كثرت — فيستشعر بأنه قد أعد نفسه لقبول صوم رمضان ، كما أعدها لأدائه إعداداً فيه رضاء نفسى وعدم مشقة فى الأداء .

* * *

ومما يرتبط بشهر شعبان أيضاً ، وله أثر فى توكيد بعض مبادىء الإسلام ، ما يحدثنا به تاريخ الإسلام عندما اتصل المسلمون بغير المسلمين والتقوا بهم فى بعض المواقع والحروب . فهو يحدثنا أنه فى الأيام الأولى لولاية عمر رضى الله عنه

التقى جيش المسلمين بجيش الفرس فى شعبان ، فى موقع يعرف : «بالنمارق» فى أرض الفرس . وكان على رأس جيش المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفى . فلما انتصر المسلمون اتضح لأبى عبيد أن قائداً كبيراً من قواد الفرس وقع فى الأسر ، وأمنه أحد المسلمين ، أى وعده بسلامة حياته من القتل . وهنا أشار بعض المسلمين على أبى عبيد بقتل هذا القائد . فكان جواب أبى عبيد : «إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون كالجسد الواحد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم» .

وما صنعه أبو عبيد هنا هو تطبيق عملى لما فعله رسول الله ﷺ من قبل . فيروى فى رواية البخارى عن أم هانىء بنت أبى طالب أنها قالت : «قلت يارسول الله : زعم ابن أمى على [رضى الله عنه] أنه قاتل رجلا قد أجرته [أمنته] فلان بن هبيرة [وتعنى جعدة بن زوجها هبيرة بن وهب المخزومى] فقال رسول الله ﷺ : « **قد اجرنا ، امنا) من اجرت يا ام هانىء** » .

فيما وقع من أبى عبيد فى خلافة عمر رضى الله عنه من أنه احترم عهداً لأحد المسلمين أعطاه اليوم لمن وقف منهم بالأمس موقف العدو المحارب اللدود ، وهو تأمين سلامته والإبقاء عليه حياً ، لايؤذى ولا يضار — هذا الذى وقع من أبى عبيد يدلنا دلالة واضحة على أن الروح الإسلامية ، وهى روح العفو والصفح عند المقدرة وعند النصر : كانت سنة المسلمين الذين فهموا إسلامهم واتبعوه فى شئون حياتهم . ثم يدل دلالة أخرى على أن الفرد المسلم فى المجتمع الإسلامى له كيانه وله احترامه ، لايلغيه المجتمع ولا يضحى بإرادته . لأنها إرادة المسلم الذى يشعر فى نفسه بمقومات مجتمعه ، ويحرص على كيانه كما يحرص على وجود نفسه . ولذلك مايلتزمه بعضهم يلتزمه البعض الآخر ، كما قال أبو عبيده نفسه : « والمسلمون كالجسد الواحد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم » .

هذه الذكريات التى يرويها تاريخ الإسلام والتى ترتبط بشهر شعبان من شأنها

أن تعيد إلى عقولنا صورة صحيحة سليمة لمبادىء الإسلام ، ومن شأنها أيضاً أن تقوى فى قلوبنا الإيمان به ، كنظام للحياة الإنسانية التى لاعوج ولا انحراف فيها .

واليوم نحاول أن تغزو المسلمين ، تغزو أسماعهم وعقولهم وقلوبهم : اتجاهات يحاول بعضها أن يلغى اعتبار الفرد كلية فى مجتمعه ، ويحاول البعض الآخر منها أن يجعل الفرد كل شىء ، يهون فى سبيل فرديته وأنانيته : المجتمع الذى يعيش فيه .

ولكنه الإسلام كما يبدو من هذا المبدأ وهذا التطبيق له — الذى رويناه الآن ، كإحدى ذكريات شعبان — يوضح لنا مدى احترام الفرد فى مجتمعه ثم مدى حرص الفرد على هذ المجتمع فى نظر الإسلام .

الإسلام يريد فرداً بناء ، متعاوناً ، ويريد مجتمعاً مكوناً من أفراد لهم حريتهم ومشيئتهم ، ولكن يعمر قلوبهم الإيمان بوجود هذا المجتمع وبالمثل التى يسعى إليها. وما يقوله القرآن الكريم : « وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[1] » .. يريد أمة واحدة فى مقوماتها وأهدافها ، أمة واحدة فى عبادتها ربا واحداً، أمة واحدة فى تعاونها وتماسكها ، ولكن لأفرادها حريتهم ومشيئتهم ، حرية بعيدة عن الفوضى ، ومشيئة بعيدة عن الهوى والأنانية .

---

(١) الأنبياء : ٩٢

غزوة بدر : « يوم المبادىء »

يقول الله تعالى ، وقوله الصدق : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [أى وأنتم ضعاف لقلة عددكم] فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[1] » .. أى اتقوه بطاعتكم لله ولرسوله لتكون طاعتكم هذه عنواناً على شكر الله إزاء نصركم وإعزازكم.

هذه الآية الكريمة تشير إلى واقعة « بدر » وإلى نصر الله للمؤمنين فيها ، مع ما كانوا عليه من قلة يومئذ ، وما كان عليه عدوهم من كثرة فى العدد وقوة فى الإعداد والعدة . وبدر مكان فى الطريق بين المدينة ومكة التقى المسلمون بالمشركين فى وادى هذا المكان فى صبيحة الثلاثاء اليوم السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة [تقريباً فى منتصف شهر مارس من سنة ستمائة وأربع وعشرين ميلادية] ولم يكد يمضى هذا اليوم حتى كان النصر حليف المؤمنين ، وهم ثلاثمائة عشر رجلا تقريباً ، ضد المشركين المكيين وكان عددهم يتجاوز الألف .

وموقعة بدر هذه هى أول حادث التقى فيه المسلمون بالمشركين التقاء حرب وجهاً لوجه . وقبلها كان عمل المسلمين وهم بالمدينة ـ رداً عما صنعه المشركون معهم فى مكة ـ وهو تعويق أمر ارتحال المشركين من مكة إلى الشام وبالعكس فى تبادل التجارة ، ذلك التبادل الذى كان قائماً من قديم بين المكيين والشاميين قبل الدعوة الإسلامية .

وقبل هذا اللقاء فى موقعة بدر نما إلى الرسول ﷺ أن أبا سفيان بن حرب عائد من رحلته إلى الشام فى طريقه إلى مكة فى أربعين رجلا معهم بعيرهم تحمل ما استقدموه من الشام من سلع ، عوضاً عما صرفوه هناك من محاصيل مكية . فدعا عليه السلام قومه إلى لقاء أبى سفيان ومن معه . وهنا يروى ابن أبى حاتم من

---

(١) آل عمران : ١٢٣.

حديث أبي أيوب أنه قال: « قال لنا رسول الله ﷺ ونحن فى المدينة : إنى أخبرت عن عير أبى سفيان [وهى عائدة من الشام] فهل لكم أن تخرجو إليها لعل الله يغنمنا إياها [أى يجعلها لنا غنيمة] ؟ قلنا نعم ؟ فخرجنا [وكان ذلك فى اليوم الثامن من رمضان] . فلما سرنا يوماً أو يومين قال : إنهم علموا خبرنا فاستعدوا للقتال ، فقلنا لا ، والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، فأعاد قوله : فقال له المقداد بن الأسود [المقداد بن عمرو الكندى من المهاجرين] يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : [اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون] ، ولكن نقول : إنا معكما مقاتلون .. وقال سعد بن معاذ وهو من الأنصار : آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو اعترضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً. وإنا رجال صبر فى الحرب وصدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله » . فسر ﷺ بقول سعد بن معاذ ، ونشط لذلك ثم قال : أبشروا ، إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، العير ، أو النفير. والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . فسار قريباً من بدر . ثم بلغه أن أبا سفيان قد نجا بالعير [إذ حول طريقه تجاه البحر الأحمر] وإن قريشاً [التى استدعاها أبو سفيان إلى نصرته بعد أن علم سراً بما عزم عليه المسلمون من لقائه فى نفرة] أقامت وراء الوادى . وبعد أن نجا أبو سفيان بسبب تغييره اتجاه خط السير العادى أرسل إلى قريش يطلب منهم العودة إلى مكة . فأبى أبو جهل بن هشام ، فأصر معه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف من زعماء قريش . فكان اللقاء ، وكانت الهزيمة لقريش ، قتل أبو جهل وأعوانه ، وأسر سبعون ، وهرب الباقى . ولما انتهت الحرب أمر ﷺ بدفن القتلى من المسلمين والمشركين على السواء ، كعادته فى الغزوات كلها ،

ثم قتل من الأسرى: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، لشدة إيذائهما المسلمين في مكة. ولم يقتل من الأسرى بعدها أحداً طول حياته.

ويشير القرآن الكريم إلى ماتردد في صدر بعض المسلمين، من عدم لقاء المشركين في هذه الوقعة لقاء حرب بقوله: «وإذْ يعدكم الله إحدَى الطائفتين [إبل أبي سفيان وما حملت من غير قتال، أو النفير وهو كناية عن القتال وما يترتب عليه من نصر مبين لكلمة الحق]: أنَّها لكُمْ وتودُّون أنّ غيرَ ذاتِ الشوكة [وهي الأولى] تَكون لكم، ويريد الله أنْ يحقّ الحقَّ بكلماتِه [بقرآنه] ويَقطع دَابر الكافرين [بهذا اللقاء المواجه]. ليحق الحق ويُبطِل البَاطل ولَوْ كَرِه المجرِمُون[(1)]».

هنا كان القتال لإحقاق الحق وإبطال الباطل، مهما كره صاحب الباطل ومهما أجرم في سبيله. وصاحب الحق إذا قوى إيمانه بحقه ـ مهما ضعف عدده، وكان يرى ذليلا من أجل قلته ـ لابد أن ينتصر على الباطل، مهما فجر صاحب الباطل وارتكب في سبيله أشنع الجرائم.

وهنا — بجانب قوة الإيمان بالحق — ترى أن روح التوثب والاقدام من أجل الحق في لقاء صاحب الباطل، وهي روح التضحية والفداء تفضل روح المستسلم. فقد رأينا هنا ما عليه الأنصاري والمهاجري من روح عالية في الحرص على الحق وتثبيت اقدامه، تلك الروح التي بدت فيما قاله المقداد، وسعد لرسول الله ﷺ عندما طلب الرأي في قتل أبي سفيان ومن معه في عودته من الشام.

هنا أيضاً — بجانب قوة الإيمان وروح التضحية والفداء — روح معاملة العدو بالمثل. عوق المشركون بمكة الرسول صلى الله عليه وسلم وعدوا بها عن نشر دعوته بكل وسائل الإيذاء والسخرية وحاصروا المسلمين وحالوا بينهم وبين

(1) الأنفال: ٧، ٨

obeikandi.com

الاتصال بالمكيين فى المعاملة والبيع والشراء ، وعندما هاجروا إلى المدينة صادروا أموالهم فى مكة ومنعوا من لم يستطع الهجرة منهم من أن يأخذ سبيله للقاء إخوانه المؤمنين . فلابد أن يعوق هذا المدو عند القدرة على تمويقه ، حتى يمتنع أذاه إلى النهاية . وهذا كان سبب اللقاء ، وسبب الواقعة فى بدر .

بجانب هذه المبادىء قضى الرسول على بعض الأسرى ، لا انتقـــاماً من أشخاصهم ، ولكن لإيذائهم الذى أصاب المسلمين فى غير شفقة ، وإعلاناً عن عدم الرضا على ارتكاب الجرائم فى سبيل الباطل .

وراء هذا كله ، تلك الإنسانية التى تمثلت فى دفن قتلى الأعداء وصيانة جثثهم من التهتك والتبذل .

يوم بدر هو يوم المبادىء ، يوم الحق ، والإيمان به ، والتضحية فى سبيله ، والطاعة لمن يقود معركته ، والنصر لمن يحرص عليه . « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

يوم بـــدر

تذكر موقعة بدر بما كان لها من نتائج فى حياة المسلمين ومستقبل الإنسانية ، وبما كان فيها من مبادىء أدت إلى هذه النتائج ، ثم بتلازم هذه النتـائج لتلك المبادىء فى الحصول والوقوع .

موقعة بدر نقطة فاصلة بين ماض كان للمسلمين ، وهو ماضى الذلة والضعف فى العدد والعدة والثراء والجـاه ، وبين مستقبل هو مستقبل العزة للاسلام والقوة والسيادة للمسلمين . هى نقطة فاصلة بين ظلام وجهل وهمجية وحيوانية فى حقبـة من حقب الإنسانية ، وبين نور وحضارة ومثل رفيعة فى تاريخ البشرية .

واقع موقعة بدر التى تمت فى السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة أنها كانت التقاء بين طرفين : بين طرف ضعيف فى عدده رقيق فى عدته ، يشعر بالظلم وبالاضطهاد ، وفى الوقت نفسه يحمل مشعل نور الإيمان بالله ، ونور الرسالة التى هى هداية للناس جميعاً ، كما يحمل مشعل الحرية ، ومشعل القيم الفاضلة للانسانية ، وبين طرف آخر هو طرف المشركين كان أكثر عدداً أو أقوى عدة وأشد جاهاً ، وفى الوقت نفسه كان يدفع فى طريقه إلى الحياة عن طريق عبـادة الأصنام والشرك فى الألوهية ، والهمجية فى السلوك . وكان نتيجة هذا اللقاء هو أن انتصر الطرف الذليل الضعيف فى عدده وعدته ، القوى فى إيمانه ، والمبشر بهداية الله فى رسالته .

ولم يتقرر لقاء المسلمين الذين تجمعوا يومئذ بالمدينة للمشركين الذين قدموا من مكة يقودهم أبو جهل فى تلك البقعة التاريخية التى تعرف ببدر بالقرب من المدينة إلا بعد أن أفلتت قافلة أبى سفيان التى قدمت من الشام فى طريقها إلى مكة هرباً من اعتراض المسلمين إياها . ولم يقم المسلمون بالمدينة يومئذ باعتراض هذه القافلة

إلا محاولة لتحطيم شوكة هؤلاء القرشيين الذين آذووا المسلمين فى ديارهم بمكة وحملوهم باضطهادهم العنيف المتكرر على الهجرة منها إلى يثرب ، واستذلوا باقى المسلمين الذين لم يتمكنوا من مغادرة مكة . فكان اعتراضاً قصد به دفع اعتداء هؤلاء المشركين إلى الأبد ، كما قصد به تقرير وضع الدعوة الإسلامية . المسلمون هاجروا من مكة بدينهم وفى سبيل الحق ، وأقاموا بالمدينة — المهاجرون والأنصار على السواء — فى إخوة وتعاون لنصرة هذا الحق . ولم يبد لحظة ما فى سماء الدعوة الإسلامية إذ ذلك أن المشركين من قريش — ألد أعداء الدعوة الإسلامية فى ميلادها — أنهم تخلوا عن عداء المسلمين ، ولا عن ملاحقتهم ، ولا عن اضطهادهم فى وطنهم الأول وفى مأمنهم بيثرب ، وكان واضحاً أنهم لا يزالون يستمرون فى الاستخبار عن أحوال المسلمين بعد هجرتهم انتظاراً لفرصة تواتيهم لا للقص من مضجعهم فحسب ، وإنما لإفنائهم وإفناء دعوتهم معاً .

وتلك سنة الطبيعة ، ومبدأ الحياة : أن الانسان إذا استشعر بعدو يتتبعه وينتظر مقتله — لابد أن يعمل على كسر شوكته وإضعاف شأنه وبالأخص إذا كان ذلك الإنسان المعتدى عليه صاحب رسالة فى الحياة هى رسالة الحضارة والمدنية للإنسان ، وهى رسالة الحق وهداية الناس ودفع الباطل وتنحية الظلم والرق والعبودية من المجتمع الإنسانى .

ولقاء المسلمين للمشركين فى بدر كانت تمليه الضرورة ، وهى الضرورة التى تدفع الإنسان إلى حماية وجوده ، وحماية رسالته فى سبيل الحضارة والمدنية والحق . لم يدر بخلد المسلمين يومئذ أن يعترضوا قافلة أبى سفيان ، ويعوقوا وصولها إلى مكة محملة بالتجارة من الشام — للنهب وسلب ما على هذه العير من أحمال ، لأنهم أصحاب رسالة الإنسانية والفضيلة . ولم يكن إذن من أهدافهم أن يسعوا فى سبيل تحقيق الشهوة والرغبة وإلا لما ذا حملوا أنفسهم مؤونة الخروج من المدينة ، وحمل

بعضهم نفسه عبء إقناع البعض الآخر للقاء المشركين فى هذه الموقعة وهم جميعاً ليسوا على أهبة ولا استعداد لهذا اللقاء؟. لو كان من رسالة المسلمين السلب والنهب لاستطاعوا أن يفعلوا ذلك بمن يجاورونهم فى المدينة . ولو كان من رسالتهم الحرب والاعتداء لذات الاعتداء لما أمنوا جيرانهم فى المدينة ، ولما أوفوا بعهودهم التى أعطوها إياهم . ولكنها كانت موقعة أريد بها — كما أشرنا — تحطيم قوى هذا العدو اللدود كى تسير الدعوة فى طريقها ، وكى يصل شعاع النور إلى قلوب الناس ، دون أن يعترضها معترض ممن يعيش فى الظلام والجهل والهمجية .

وما انتصر المسلمون فى موقعة بدر — وهى الموقعة الأولى بين المسلمين والمشركين مع ضعفهم ومع ذلتهم إلا بإيمانهم القوى برسالتهم وبتوكلهم على الله ، وبطاعتهم لرسول الله ، وبإيثارهم الحياة الآخرة على الدنيا ، وبإصلاح ذات بينهم ، وتعاونهم فيما بينهم . وهكذا كان إيمان القلوب برسالة المثل والأهداف العليا ، بجانب التعاون والأخوة مضافاً إلى التوكل على الله وطلب المعونة منه فى الشدائد والأزمات ومضافاً أيضاً إلى طاعة القائد ، وعدم مجادلته فضلا عن عصيانه : من الأسباب التى حولت الضعف إلى قوة ، والظلام إلى نور ، والفقر إلى عمران ، والبداوة إلى حضارة ومدنية ، والعبودية إلى حرية ، والظلم إلى عدل ، والخوف إلى أمان . وبذلك كان النصر للمؤمنين ، وبذلك تحقق وعد الله : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[1] » .

المبادىء هى كما ذكرنا ، والنتائج هى النصر للحق ورسالة الإنسانية والسلام والعدل والإخاء مهما طال أمر الجهاد فى سبيلها ، والهزيمة كل الهزيمة للشرك والكفر بالمثل وبالإنسانية مهما طغى أصحابها ومهما تعددت عدوانهم كما وكيفاً .

غزوة بدر هى الفرقان بين الحق والباطل ، وبين ماض ذليل ، وحاضر ومستقبل وى عزيز .

---

(١) الروم : ٤٧

الأعياد فرصة لتجديد الحياة

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . . يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد . وفى عيد الأضحى يفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذى الحجة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر من ذى الحجة نفسه ، نحو خمسة أيام :

١ — يؤكد بالتكرار : أنه لا أكبر ولا أقوى ولا أكمل فى الوجود سوى : الله .

٢ — يعتمد على الله ، ويحمد له نعماءه ، ويرضى بقضائه .

٣ — ينادى بعلو الله وارتفاعه .

٤ — يؤكد وحدانيته ، ويعلن الإخلاص والانقياد له ، ويصر على ذلك مهما كان من غضب المخالف .

يجهر بذلك فى القول والدعاء ، ويجهر بذلك فى الصلاة فى الخلاء ، ويجهر بذلك فيما يزين به نفسه .

العيد الإسلامى فيه مظهران : المظهر الأول الإعتداد بقيم الجماعة الإسلامية . المظهر الثانى الجهر بالاعتداد بهذه القيم .

سنة المسلمين التى أثرت عن رسول الله ﷺ فى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى — هى أولا : التكبير على هذا النحو :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله

بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون .

وفترة هذا التكبير تطول وتقصر حسب العيد :

أولا : ففى عيد الفطر يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد، وفى عيد الأضحى يفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة ، وهو اليوم التاسع من ذى الحجة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر منه ، أى نحو خمسة أيام .

وثانيا : الجهر والعلانية عند ترديد هذا التكبير ، والجهر والعلانية فى صلاة العيد بأن تكون فى خلاء ، والجهر والعلانية فيما يتزيا به المحتفلون بأن تكون ثيابهم نظيفة ، ويستحب أن تكون جديدة، وفيما يزينون به أنفسهم من طيب .

ترديد : أن الله أكبر وأنه أحد لا شريك له ، وإعلان ذلك فى غير خفاء ولا لبس : هو مظهر العيد الإسلامى ، وهو سنة المسلمين فى الاحتفاء به .

يأتى العيد ويأتى معه مظهره وسنة المسلمين فى استقباله . ويتكرر العيد فى العام مرتين ويتكرر الاحتفال به على هذا النحو : نداء بأن الله أكبر ، وأنه وحده لا شريك له ولو كره الكافرون ، وجهر بهذا النداء المتكرر فى جوف الليل وفى وضح النهار .

إنه إذن فرصة ليجدد فيها المسلمون شعار الحق بينهم ، وما انفقت عليه قلوبهم من إيمان ، وما قامت من أجله جماعتهم وتميزت به عن أية جماعة أخرى غيرها . والمسلمون كمسلمين لم تتميز حياتهم عن حياة أية جماعة أخرى بلا كل والشرب ولا بألوانهما ، أو بأسلوب تناولهما . ولم تتميز أيضا بالتقدم أو بالتأخر فى الحضارة وفى فنون الصنعة ، وما أشبه ذلك مما يعرض لكل جماعة ويشترك فيه غير واحدة . تميزت حياة المسلمين بالإيمان بالله الواحد ، والاحتفاظ بالوحدة فى الشعار والعلاقة بينهم ، تلك الوحدة التى تترجم عنها — كما توحى بها —

عبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج . وما تميزت به حياة المسلمين كمسلمين يعبر عنه نداء التكبير فى العيد : الله أكبر ... لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . وإذن الاحتفال بالعيد هو تأكيد جديد لما تميزت به حياة المسلمين كمسلمين .

وأن أية أمة لا بد أن يكون لها فى سنى حياتها سنة بعد سنة من الأعياد ما تستعيد فيه ذكرى قيامها كأمة ، وما تعيد فيه العهد على الاحتفاظ والمحافظة على الأهداف التى ربطت بين أفرادها ، وكونت منهم أمة تميزت عن غيرها .

* * *

نحن كمسلمين يجمع بيننا إذن الإيمان بوحدة الله ، ووحدة الشعار ووحدة الهدف والتآخى فى العلاقات ، والانسجام فى الصف عند الصلاة وعند الكفاح ، والاقتداء بإمام واحد فى الصلاة والطاعة لقائد واحد عند كفاح الخصم الأجنبى . ولذلك كانت السنة المأثورة فى الاحتفال بالعيد هى الإعلان والجهر فى وضوح بما اجتمعنا عليه كمسلمين . وكان ذلك هو السنة المأثورة ، لأنه هو الذى يحددنا كجماعة قامت ، وهو الذى يحفظ لنا استمرار حياتنا كجماعة وأمة مسلمة .

إن عيد الفطر يعقب صوم رمضان ، وصوم رمضان فترة صفت فيها نفس الصائم لله الواحد لأنها راقبته وحده فيما قامت به من صيام . فكان عيد الفطر نهاية لهذه الفترة يعلن فيه الصائم فى غير التواء ولاءه لله الأكبر الواحد كما يعلن فى غير التواء كذلك تحديه للخصم المعاند إذ يقول فى ندائه : « مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وإن عيد الأضحى يتبع الوقوف بعرفات ، وعرفات هو المكان الذى يلتقى فيه المسلمون من كل حدب وجهة فى وقت واحد ، متشابهين فى الملبس والمظهر كما هم متحدون فيما ينطوى عليه القلب من إيمان بالله الواحد . فكان عيد الأضحى

هو نهاية هذا الاجتماع العام الذى يعلن فيه الحاج فى غير التواء ولاءه لله الأكبر الواحد ، كما يعلن فيه فى غير التواء أيضاً تحديه للخصم المعاند .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها :

احتفالكم بالعيد هو احتفال بمقومات جماعتكم ، هو عهد يعطى لله فى علانية تامة على الاحتفاظ بشخصيتكم . هو تصريح فى اجلاء بعدم المبالاة بخصمكم ، هو إعلامه عن ولاء بعضكم لبعض وعدم اتخاذ المخاصمين لكم أولياء من دونكم ، هو إعلان لهذه الآية الكريمة : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير[1]» .

إن الإسلام دين وحدة ، ولكنه ليس ديناً لفرد فى غير ما صلة بفرد آخر ؛ إنه دين الإيمان بالله الواحد ، ودين الجماعة التى آمنت بالله الواحد . يعنى بوحدة الله فى الإيمان ، كما يعنى بوحدة الجماعة فى العلاقات ، والصفوف ، والإمامة ؛ والقيادة .

وأعياد الإسلام لذلك هى أعياد جماعة واحدة ، سنت لتلتقى فيها قلوب الأفراد على وحدة الشعار ، ومن أجل وحدة البقاء .

إن عيدى الفطر والأضحى شرعهما الإسلام لتجديد الحياة كما رسمها الإسلام لمن آمنوا به ، وهى حياة الإخاء والوحدة والقوة فى مواجهة الخصم . الله أكبر ، لا شريك له ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون : هذا هو مظهر احتفالكم بالعيد .

---

(١) آل عمران : ٢٨

العيد فى حياتنا الاجتماعية

حياة الجماعة ليست على نمط حياة الفرد :

حياة الفرد الشخصية لايكثر فيها الشد والجذب ، ولايبدو فيها الاحتكاك بينه وبين نفسه . ومهما توزعت نفس الإنسان ، وترددت بين اتجاهات مختلفة فى الحياة وفى السعى فيها ، فان توزعها أو ترددها لايؤدى إلى حقد الإنسان على نفسه أو إلى العمل على هدم ذاته .

أما حياة الجماعة — لأنها حياة مجموعة من أفراد الناس ربطت بينهم بقصة محدودة مما فيها من إمكانيات العيش ، ووسائل الحياة المختلفة — فشأنها أن تكون مجالا للتنافس . وحياة تقوم على التنافس تثير بين المتنافسين أسباب الخصومة والنزاع . والاحتكاك والاصطدام . والضعفاء من بين أفراد الناس الذين تتكون منهم الجماعة ، الفقر أو لمرض ، أو لجهل يسلكون فى خصومتهم واحتكاكهم طريق الضعفاء ، وهو طريق الحقد والحسد والدس والإيقاع ، والنفاق والاستخذاء . والأقوياء من بين هؤلاء الأفراد تغريهم قوتهم بمالهم أو صحتهم ؛ أو جاههم ، فلايعطفون على ضعفاء جماعتهم ، بل يسترسلون فى طريق قوتهم ، فى طريق المال وجمعه ، والاعتزاز بالصحة والإغراق فى حب الجاه ومظهره . وبهذا وذاك تتفرق الأرواح والنفوس ، ولا تلتقى نفس بنفس إلا فى سبيل حزبية ، أو لزيادة الفرقة والانفصال .

والدين حقا قد تكفل برفع هذه الفجوة بين الضعيف والقوى ، فحارب خطوات الضعيف ، وهى خطوات الحاقد الساعى بالإيقاع ، الذى يضمر الشر ولايستطيع أن يعبر عنه ، كما حارب القوى فى غروره وخداعه بقوته . ونصح

كليهما بأن يمد كل منهما يده للآخر . والضعيف يمد يده للقوى ليبارك له فيما حباه الله من قوة ، والقوى يمد يده للضعيف ليعاونه على حال ضعفه وينقذه من هوانه ومذلته .

الدين تكفل بهذا كله ، ورسالته فى الجماعة هى التعاون بين الناس أو العمل على التقاء الضعيف بالقوى ، والقوى بالضعيف ، فى جو إنسانى تبدو فيه المشاركة الإنسانية فى أوضح مظاهرها ، وفى صورتها الكريمة .

ولكن الدين إذ يتكفل بذلك ، فطبيعة الجماعة من المنافسة ، والفرقة من أجلها فى ميدان الحياة المشترك — إن استقامت فترة من الزمن وخضعت لوصايا الدين فى نصحه للجماعة — قد تعود إلى حالها الفج فى فترة أخرى بحكم ما لهذه الطبيعة من قوة فى ذاتها لا تفنى ، بل تضعف فقط إذا ما تأثرت بوصايا الدين . ولذلك أوصى القرآن الكريم — كعامل لمقاومة عودة هذه الطبيعة إلى حالها الأول — بعد أن استقر الإسلام واكتملت آياته وتعاليمه : باستمرار الدعوة إلى هذه التعالى فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ومعنى أنه يطلب استمرار هذه الدعوة : رغبته فى عدم ترك الجماعة بعد تنبيهها لأول مرة وإيقاظ وعى الدين بها ، خشية أن تعود إلى إلفها وسابق عهدها .

والعهد فى حياة الجماعة يشبه القيام بهذه الدعوة بين فترة وأخرى يعود من وقت لآخر فيتكرر كما تتكرر الدعوة ، ويتجلى فى وقته — أثر له — موقف خاص ، يتخذه الأفراد بعضهم تجاه بعض . هذا الموقف هو وقف الخصومة بين المتخاصمين ، وما خصومتهم إلا خصومة الضعيف للقوى والقوى للضعيف ، ثم إقبال كل من الطرفين على الآخر بوجهه ، بعد أن كان موليا له ظهره . هذا الموقف

من شأنه أن يضعف الخصومة ، أو يؤجل أمرها إلى حين . وذلك كسب للجماعة التى تريد أن تتحد لتقوى .

والرسول عليه الصلاة والسلام حرص فى خطبته يوم عيد الأضحى أن يؤكد حرمات المسلمين فيما بينهم ، أن يؤكد حرمة الدماء والأموال والأعراض حتى لاتنهك من ضعيف أو قوى ، وحتى لا يستهرىء طرفا الخصومة شهوة اللجاج فيها . فيروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال : « **يايها الناس اى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام (اى ذو حرمة وتعظيم) قال : فاى بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام ، قال : فاى شهر هذا ؟ قالوا شهر حرام . قال : فان دماءكم ، واموالكم ، واعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا . فاعادها مراراً ، ثم رفع راسه فقال : اللهم هل (قد) بلغت ، اللهم هل بلغت** » .

ويوم النحر هو اليوم التالى ليوم عرفة وهو المعروف باليوم الأول من أيام عيد الأضحى للمبارك: عيد إسلامى . يروى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **يوم عرفة ، ويوم النحر ، وايام التشريق ، عيدنا — اهل الاسلام — وهى ايام اكل وشرب** » .. أى لاينبغى فيها الصوم والامساك عن الأكل والشرب .

وهنا موقف آخر كأثر للعيد فى حياتنا الاجتماعية وهو أن من بين أفراد الجماعة حتماً من لا يكون صاحب شهوة فى الخصومة ، ومن هو ينأى بنفسه عن الاحتكاك والاصطدام، سواء فى صورة احتكاك الضعفاء أوالأقوياء .هؤلاء غلب الخير على طبيعتهم ، ولم يدعوا للشر منفذاً ينفذ منه فى علاقتهم بغيرهم . فإذا أقبل العيد فإقباله عليهم من دواعى زيادتهم فى الخير بالتسامح والتصافى أو البذل والاعطاء . وهذا من غير شك من أسباب حسن التفاهم فى الجماعة ، وحسن التفاهم فيها من عوامل اتحادها وقوتها .

وهذا الموقف وذاك : يشبه أثر الدعوة لتعاليم الدين عندما تتجدد وتثمر . ثم إن العيد الدينى إذا عاد صحب معه ذكريات التعاليم الدينية فهو نفسه تجديد للدعوة وإحياء لوصاياها . ولأن للعيد هذا الأثر فى حياتنا الاجتماعية ، كلما زدنا احتفالا به ، وتقديراً لعودته كلما كان أثره أقوى وأوسع ، وكلما نجح دعاة الدين فى تقوية هيبة الأعياد الدينية فى نفوس الأفراد ، كلما عاد هذا الأثر على المجتمع بالصفاء والإخاء والقوة .

وان مجتمعاً كمجتمعنا تسيطر فيه روح الأنانية ، وتكثر فيه عوامل الفرقة والخصومة ، وينقسم إلى شيع وأحزاب يبغض بعضها بعضاً — فى حاجة ماسة إلى إيقاظ الوعى النفسى بالعيد ، ثم توكيد هذا الوعى وتقويته .

نحن فى أيام الأعياد نرجو أن يقبل بعضنا على بعض ويصافح بعضنا بعضاً ، ونفسح صدورنا لهنات بعضنا ، وننطق بشكر أهل الخير فينا . إن نفعل ذلك نكون قد احتفلنا بالعيد ، ويكون للعيد أثره المبارك فى حياتنا الاجتماعية .

إننا فى حاجة لأن نقوى ، لأنفسنا خاصة . ولجاهنا الذى نستمده من عزة أوطاننا . فأحرى بنا أن نشعر بالعيد ، وشعورنا به أن نمحو خصومتنا فى جماعتنا بالأمس ، وأن نفعل الخير لأهلنا وجيراننا ومواطنينا إن استطعنا .

الروابط الإنسانية فى العيد

إن الاحتفال بعيد أى عيد للجماعة من شأنه أن يوقظ الوعى بالروابط التى بين أفراد هذه الجماعة . إذ لا تحتفل جماعة ما بعيد من أعيادها إلا لذكريات تعيد لها مجداً أو صورة نصر وقع فى الأيام التى تحتفل بها . وهذا النصر أو هـذا المجد الذى وقع لها فى التاريخ ، إنما وقع بسبب ما بين الأفراد من دوافع مشتركة نحو تحقيق هدف معين . وإذن الأحداث فى تاريخ الجماعة التى من شـأنها أن تذكر بصور أمجادها وانتصاراتها — تمثل أسباب قيام الجماعة ، كما تصور مثلها الرفيعة التى تسعى إلى تحقيقها .

وعلى سبيل المثال فى جماعتنا الإسلامية — نرى العيدين : عيد الفطر ، وعيد الأضحى يصوران مجداً ونصراً ، ثم لأول مرة فى اليوم الذى يحتفل به كل عام . وهو اليوم الأول من شوال فى عيد الفطر ، واليوم العاشر من ذى الحجة فى عيد الأضحى . فاليوم الأول يمثل النصر بإتمام صوم رمضان . بينما اليوم الثانى يصور يسر الأداء لفريضة الحج . وكل من رمضان ، والوقوف بعرفات له شأن يذكر فى تاريخ الجماعة الإسلامية ، ومنزلة بين الفرائض التى فرضت فى تعاليم الإسلام . ففضلا عن أن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، أساس الهداية للمسلمين ، ومصدر الروابط المشتركة بين أفراد الجماعة الإسلامية ، وموضع تحقيق مثلها وأهدافها — فإنه نفسه يعبر بصومه عن انتصار الإرادة الإنسـانية على الشهوة ، والرغبات التى من شأنها أن تبعد الإنسان عن أن يكون صاحب سيادة على نفسه وعن أن يكون مسهماً فى سيادة مجتمعه .

والوقوف بعرفات — فضلا عن أنه يصور انتصار المسلمين فى اجتماعهم من جميع مشارق الأرض ومغـاربها فى مكان واحد وفى لحظـة واحدة من اليوم

الواحد — فإنه يعبر عن روح المساواة بين المسلمين جميعاً ، سواء فى وقوفهم أمام الله مجيبين دعوته ومطيعين أمره بقولهم : لبيك اللهم لبيك ، أو فى تجردهم من مظاهر الدنيا بحيث لايعرف فقيرهم من غنيهم ، ولايعرف وضيعهم من سيدهم ، ولايعرف مشرقيهم من مغربيهم إلا باللسان واللهجة .

وما تم إذن فى اليوم الأول من شوال من إتمام شهر الصيام ، وفى اليوم العاشر من ذى الحجة من إتمام الوقوف بعرفة — من شأنه أن يعيد للمسلمين صورة ذلك النصر المؤزر ، وهو نصر الإرادة الإنسانية والتلاقى بين أفراد الجماعة الواحدة على الإيمان وحب الله والمساواة .

وكما أن عيدى الفطر والأضحى يصوران هذا النصر للمسلمين — فإن هذا النصر نفسه لم يكن نصراً للجماعة إلا بعد أن قامت روابط هذه الجماعة على أساس من الإيمان بالإسلام وتحقيق أهدافه ومثله العليا . وإذن هنا عيدان يذكران المسلمين بتلك الروابط التى قام عليها مجتمعهم ، كما يذكرانهم بتلك الأهداف التى يسعون إلى تحقيقها . وهى روابط لاتتصل بالدم ولا بعلاقة النسب ، وإنما تتصل بالمثل الفاضلة ، وهى تلك المثل التى تصور مستوى الإنسانية الرفيع . ومن هنا كان الاحتفال بأى عيد منهما هو تذكير بتلك الروابط الإنسانية التى جمعت بين المسلمين فى الأساس والغاية .

* * *

ولأن وضع العيد فى الجماعة هو هذا الوضع ، وهو وضع الموقظ لذكريات تتصل بالعلاقات الإنسانية بين أفرادها — يطلب فى الاحتفال به الإعلان عنه ، تعريفاً به وتذكيراً قوياً لآثاره . وهنا كان من السنة فى احتفال العيدين : الفطر ، والأضحى فى الإسلام ، جملة مظاهر تعبر عن هذا الإعلان . أولا : أن تكون القراءة فى صلاته قراءة جهرية ، وأن يكون اجتماع المسلمين لصلاة العيد فى مكان خلوى ، وأن يكون تكبيرهم فى ذهابهم إلى مكان الصلاة بصوت مسموع . هذا

بجانب مايطلب من المسلمين من لبس جديد ودفع كل ما يؤذى حاسة الشم أو حاسة البصر . على أنه يستحب أيضاً — كطريق لهذا الإعلان — أن يكون الذهاب إلى مكان الاجتماع من طريق ، والرجوع من طريق آخر، فيروى البخارى : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج يوم العيد فى طريق رجع فى غيره » .

وهذه الصور لإعلان الاحتفال بالعيد ، بدورها ما هى إلا تعبير عن ذلك الشعور النفسى الداخلى بالفرح والسرور . وهو الفرح برباط الأخوة المشتركة . والسرور بالتقاء الأفراد على المثل التى جمعت ووحدت بينهم . ولأن النفس عادة إذا تمكن منها داعى الفرح والسرور تخرج عن جديتها فى الحياة ، لذلك نرى الإسلام يتيح ممارسة اللهو غير الضار وغير المفسد فى هذا اليوم . فيروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قدم النبى المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ماهذان اليومان؟ قالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ان الله قد ابدلكم بهما خيرا منهما : يوم الاضحى ويوم الفطر** » .

إن الاحتفال بيوم العيد إذا أيقظ الروابط المشتركة بين أفراد الجماعة التى تحتفل به — فإن فى مقدمة هذه الروابط : الوحدة فى القيم والمبادىء .ووحدة القيم والمبادىء كما تشجع على قوة الترابط بين الأفراد ، تحمل هؤلاء الأفراد على أن يستمروا فى سبيل هذه الوحدة الخالدة . لأنهم سيذكرون فى الاحتفال بالعيد أنهم انتصروا من أجل تلك القيم والمبادىء ، وبسبب تمكنهم بها . وهنا أبرز شىء نستلهمه من ذكرى العيد والاحتفال به هو هذه الوحدة فى القيم ، والأخوة فى الترابط . وعن هذه الوحدة فى القيم ، والأخوة فى الترابط ، تنشأ الصلات الأخوى ،من عطف القوى على الضعيف، وتودد الجار لجاره ومواساته له فى الضراء ومشاركته له فى فرحه ، ورعاية ذوى القربى واليتامى والمساكين ، والمحافظة على الحرمات من نفس ومال وعرض .

عيد الفطر

الاحتفال بعيد الفطر هو احتفال بجهاد النفس فى القيام بالصوم فى شهر رمضان وبالنجاح فيه . هو احتفال بقوة العزم والتصميم التى تمكن بها الإنسان الصائم من التغلب على نوازع الشهوة والهوى فى نفسه طوال شهر الصوم ، والتى سيتخذ منها عدته فى التغلب كذلك على ما يعترض طريق حياته فى غده : من صعاب وأزمات .

وما أكثر الصعاب والأزمات التى تعترض الطريق فى حياة المؤمن وصاحب القيم والمبادىء . وهى عادة قيم ومبادىء تميز وجود مجتمعه وأمته وعالمه . صعاب وأزمات يختبر بها كل مجتمع : إن فى رهبة عدو له ، أو فى قوت يومه بسبب نقص مؤقت فيه ، أو فى ضائقة اقتصادية ، أو فى وباء أو عواصف أو زلازل تودى بحياة الكثيرين من أبنائه .

ويكاد يكون الاختبار بمثل هذه الصعاب والأزمات قانوناً من قوانين الوجود ومن طبيعة المجتمعات الإنسانية لا يتخلف عنه أى مجتمع كما تقول الآية الكريمة :

« ولنبلونكم :

« بشىء من الخوف ،

« والجوع ،

« ونقص من الأموال ، والأنفس والثمرات ،

« وبشر الصابرين » .

ثم تقول الآية الأخرى :

« لتبلون :

« فى أموالكم ،

« وأنفسكم ،

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا: أذى كثيراً ،

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » ..

فالقرآن ـ وهو كتاب الله لهداية الإنسان — يؤكد أن الأزمات المتنوعة وهى أزمات مادية ونفسية تعترض طريق كل أمة ومجتمع فى حياته وفى سبيل تمسكه بالمبادىء والقيم الإنسانية التى من شأنها أن تحقق خيره وتعلى كلمته . وعندما يؤكد القرآن ذلك : لا يرى من علاج للتغلب عليها سوى الصبر .

وطريق الصبر يكمن فى قوة العزم والتصميم . وهى قوة عزم الأفراد وتصميمهم. إذ ليس للأمة أو للمجتمع قوة عزم وتصميم مستقلة عن قوة أفراده ووراءها أو فوقها . وهنا كان صوم رمضان وأثره على الفرد فى تكوين هذه القوة وفى توجيهها نحو تحدى الشدائد الاقتصادية والنفسية معاً .

فليس المطلوب فى صوم رمضان هو إمساك فحسب عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، وإمساك كذلك عن لغو الحديث ، وإنما فى الدرجة الأولى : إمساك عن الغضب وتحمل الأذى . والإمساك المطلوب إذن هو إمساك مادى ونفسى معاً مما يهيىء الفرد لمواجهة سليمة لما يعترض طريق حياته كإنسان ، فيما يتصل ببدنه أو بنفسه على السواء ، ويهيئه أيضاً للتماسك والصفاء مع غيره .

وطلب الصوم لكل رمضان يأتى على الإنسان فى حياته : قصد به الاحتفاظ بقوة العزيمة وبالتالى بقوة الصبر والتحمل عنده ، ليكون على درجة من الاستعداد

يقاوم بها فى غير تردد: مايواجه حياته من صعاب طبيعية أو مفتعلة من عدو أو متآمر:

* * *

ومن أجل ذلك كان دعاء العيد هو نشيد « النصر ».. يدعو به المحتفل ربه فى نشوة الفرح وفى علانيـة ، شأن المنتصر فى ميدان المعركة فى طريق عودته إلى مقره .

إنه فى دعائه يذكر شعار مايؤمن به ، وهو :

« الله أكبر . . . لا إله إلا الله وحـده ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا » .

ثم يذكر فضل الله عليه فى النصر فيقول :

« لا إله إلا الله وحده ،

« صدق وعده ،

« ونصر عبده ،

« وأعز جنده ،

« وهزم الأحزاب وحده » .

ثم أخيراً يعود فى هذا الدعاء فيعلن تأكيد شعار الإيمان مرة أخرى مع الإخلاص فى الولاء لله مهما كان اعتراض الأعداء على إيمانه وصدهم له:

« لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ،

« مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وهذا الدعاء وإن أرجع فيه النصر على العدو إلى الله ، فليس معنـاه أن الفرد لادخل له فيه . وإنما القصد إلى دفع غرور الإنسان بقوته ، وعدم إضعاف صلته بالله والاعتماد عليه فى مباشرة أى عمل بعـد الإعداد له ، وقاية له من الزلل أو

الهزيمة بسبب الغرور والافتتان بالقوة المادية وحدها . كما حصل للمسلمين فى موقعة « حنين » . ويقصها القرآن الكريم فى هذه الآيات :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ،

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين .

« ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

وما عالج به القرآن هنا هزيمة المؤمنين فى هذه الموقعة — بعد أن أراهم أثر الإعجاب بالقوة المادية وحدها من الفرار وخيبة الأمل التى ضاقت بها صدورهم ورحابهم — حتى عادوا فانتصروا ونال أعداؤهم على أيديهم مالم يكن لهم قبل فى احتماله من عذاب . . هو الرجوع إلى الله والتوكل عليه . فإذا رجع الإنسان إلى الله وتوكل عليه بعد إعداد: هدأت نفسه واشتدت عزيمته وتيقن من نصر الله إياه . وعندئذ سيكون النصر حليفه . لأن الثبات وقوة العزيمة لا يقلان عن قوة الاعداد، إن لم يتفوقا عليها فى إحراز النصر فى ميدان المعركة ، أو مجال إغراء الدنيا ومتعها .

وما عبرت به الآية هنا فى قول الله : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها . » . هو تصوير لرجوع المؤمنين إلى الله وتوكلهم وطلبهم العون منه .

* * *

على أن اجتماع المؤمنين فى مكان واحد لصلاة العيد ، فى مسجد يجمعهم أو فى صحراء تتسع لهم ، هو نفسه عامل قوة وتماسك فى بناء الأمة ، وعامل آخر لتصفية النفوس من شوائب الخلافات الدنيوية . لأن اجتماعهم عندئذ هو فى مواجهة الله

لتعظيمه وتكبيره . فإذا نطقوا مجتمعين بـ : الله أكبر ، فى مسيرتهم إلى العيد أو فى أدائهم لصلاته . وكرروا ذلك عدة مرات فيكون من التناقض فى نفوسهم أن يرفعوا متع هذه الحياة الدنيا الدنيوية التى اختلفوا بسببها قبل الآن إلى مستوى الله وجلاله ومستوى تعظيمه وإكباره ومستوى إعزازهم وإيمانهم به وحده فى دنياهم .

والمؤمنون لم يجتمعوا فى هذه اللحظة كذلك إلا ليحتفلوا بالنصر كأفراد وكجماعة . وذلك مدعاة إلى مزيد من التماسك والقوة ، ثم فى الوقت نفسه إلى مزيد من الصفاء والمحبة والأمل بينهم جميعاً .

فإذا جاء الحج بعد ذلك — وهو المؤتمر السنوى العام للمؤمنين — كان التقاؤهم فيه التقاء الأخ لأخيه الذى لا يحمل حقداً بسبب دنيا ، ولا يتعالى بسبب مال أو جاه وكان التقاؤهم فيه على الإيمان بالله وفى سبيل الله .. على خير أنفسهم وخير أمتهم.

العيد وأيام التشريق

الحج عبادة تتحقق فى الانتقال من مكان إلى مكان، ومن ذكرى فى مكان إلى ذكرى أخرى فى مكان آخر . فإذا ابتدأت هذه العبادات بطواف القدوم حول الكعبة ، وانتقلت منه إلى السعى بين الصفا والمروة ، ثم إلى الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، ثم الإفاضة من عرفة إلى المشعر الحرام وهو المزدلفة يوم العيد أو النحر ، ثم رمى الجمار بمنى أيام التشريق الثلاث بعده : فإنها تنتهى بالكعبة فى مكة مرة ثانية والطواف حولها طواف الوداع .

والحج — كعبادة — يهدف إلى صفاء النفوس وتزكيتها . يهدف إلى تهيئة جو قدسى تتصل فيه النفوس بجلال الله سبحانه وتعالى وتعلن فيه راضية مرضية : « لبيك اللهم لبيك » مستجيبة لأمره ومطيعة فى سلوكها إلى هدايته . تخلى فى هذا الجو بينها وبين فتنة الدنيا ومالها من زينة ومظاهر ، وتخلص فيه لله وحده .

وبجانب أنه عبادة ارتبطت بأمكنة معينة — هو يعيد للنفوس ذكريات : هذه الذكريات تتصل برسالة دين الله وتتصل كذلك بوضع المجتمع الإسلامى الذى قام على هذه الرسالة فى صورتها النقية الخالصة .

فما يتصل منه بدين الله أنه يسهم بقسط واضح فى إخلاص العبادة لله وحده وإبعادها عن الشرك ، كما يسهم فى تنقية الصورة التى كانت له نفسه فى دين الله ، من الشوائب التى خالطته منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى دعوة الرسول محمد ﷺ : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»(١) .

وما يتصل منه بوضع المجتمع الإسلامى — فإن مايقع فيه من نقلة من مكان

---

(١) الحج : ٢٦ ، ٢٧ .

إلى مكان : يعيد للمسلمين ما حدث فى تاريخ تكوين مجتمعهم من أحداث تمت فى العيد وأيام التشريق بالذات ، فى السنتين التاسعة والعاشرة من الهجرة .

وهى أحداث تصور ماتم فى تصفية المؤمنين لموقفهم من المشركين مما وقع فى السنة التاسعة من الهجرة على نحو مانشير إليه سورة التوبة فى آياتها فى مثل قوله تعالى : «وأذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِه إلى الناسِ يَوْمَ الحجِ الأكبرِ أن اللهَ بَرِىءٌ مِنَ المشرِكين وَرَسُولُه، فإن تبتم فَهوَ خَيرٌ لَكم وَإن تَوليتُم فاعلَمُوا أنكم غير مُعجِزِى اللهِ وبشرِ الذينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أليم . إلا الذينَ عَاهَدتم مِنَ المشْرِكين ثم لمْ ينقصُوكمْ شيْئاً ولم يظَاهِرُوا عَلَيكم أحَداً فأتموا إليهم عَهدهم إلى مدَّتهم ، إن اللهَ يحبُّ المتقِين . فإذا انسَلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشْركين حَيْث وجدتموهم وخُذُوهم واحصرُوهم واقعدُوا لهمْ كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن اللهَ غفور رحيم . وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون[1] » .

ففى هذه السنة التاسعة من الهجرة ، فى يوم النحر وعند جمرة العقبة بمنى جاء على رضى الله عنه موفداً برسالة من رسول الله ﷺ إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر أميراً على المسلمين فى حج هذا العام . وتلا علىٌّ هذه الرسالة على الناس جميعاً، وكان فيهم المؤمن والمشرك، قائلا : إنى رسول رسول الله إليكم جميعاً . فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم أوائل سورة التوبة. ثم قال : أمرت بتبليغ أربع : لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان — أى من المشركين — له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

وبهذا التبليغ حدد علىٌّ الوضع بين المسلمين والمشركين ، وأعان فى صراحة واضحة تخلص المجتمع الإسلامى فى عبادته وفى مبادئه من بقية القيود والالتزامات

(١) التوبة : ٣ — ٦ .

obeikandi.com

التى قبلها المسلمون يوم أن كانوا لم يستكملوا كل الإمكانيات الأدبية والمادية التى ترجح كفتهم فى النضال .

ومن هذه الالتزامات مشاركة هؤلاء الأعداء لهم فى أداء الحج فى وقته، بالصورة التى ألفوها والتى تخالف فى بعض جوانبها ما كان عليه الحج على عهد إبراهيم عليه السلام .

ولم يكن بد للمجتمع الإسلامى أن يتخلص من هذه القيود والالتزامات طالما قد تمكن من النفوق ، وطالما يرى إصرار عدوه على التربص والغدر به ، وطالما يراه لايرقب عهداً ولا ذمة فى عضو من أعضائه ، وطالما يراه مسترسلا فى غيه ومسترسلا فى همجيته : « كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (١) » .

وفى العيدوفى أيام التشريق أيضاً ولكن فى سنة تالية بعد هذه السنة ، فى السنة العاشرة من الهجرة ، وهى السنة التى ترأس فيها الرسول ﷺ الحجاج ولم يكونوا جميعاً إلا مسلمين ـ وقع من الأحداث مايعيد لحجاج بيت الله الحرام بعدذلك إلى يومنا هذا، وبعد يومنا هذا: ذكرى يجب أن يقفوا عندها طويلا ويجب أن تظل الدافع الذى يحدد موقف بعضهم من بعض ، كما يجب أن يظل الحادث السابق عليه دفعاً لمواقفهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ولا يرعون فيهم عهداً ولا ذمة .

هذا الحادث هو ذلك النداء من الرسول الذى وجهه للمؤمنين فى حجه الوداع يقول فيه : « **يايها الناس : انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وانى تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعدى ... كتاب الله** » .

هاتان حادثتان فى تاريخ إسلامكم وقعتا فى العيد وأيام التشريق . إحداهما تذكر بما يجب أن تكون عليه سيادتكم نحو عدوكم . والأخرى تذكركم بما يجب أن تكونوا عليه فى داخل أمركم وتوجيهكم فى الحياة . وكلتاهما ترسم طريق القوة فى الخارج والداخل على السواء لمجتمع يريد أن يبقى قوياً . . .

(١) التوبة : ٨ .